مغزى شعارات الوطنية المزيفة التي لايفتأ حكام انجلترا يرددونها على اسماع شعبها وغيره من الشعوب في قصيدته الثورية الرائعة « عصر البرونز » . وأظهر في هذه القصيدة دور الرساميل الرهيبة التي بدأت تتلاعب بمصائر الشعوب . وتحدث عن اصحاب المصارف والبارونات الذين « يخضعون جميع البلدان وكافة الحكام » فهم يدعمون « الطغاة المفلسين» ويختقون الانتفاضات ويتاجرون بها . وهم — شأن التاجر الخسيس شايلوك — يجتزون من كل أمـــة « قطعة اللحم القريبة الى القلب » .

اما قمة ابداع الشاعر الكبير فكانت رواية « دون جوان » الشعرية وقد بدأ كتابتها وهو في ايطاليا واستمر في ذلك عدة سنوات دون أن يستطيع اكمالها اذ غاله الموت قبل ان ينهيها ، فكان مجموع مانشره منها ستة عشر نشيدا . والمعتقد ان الشاعر أراد أن يسير ببطله عبر الدول الاوروبية الهامة ومن خلال احداث كبرى في حياة القارة تنتهي بقيام الثـــورة الفرنسية .

لقد رسم الشاعر في روايته الصورة الكاملة للحياة في عصره . فهو يصف حيـــاة الأعيان في اسبانيا — دون جوان اسباني المولد — ثم ينتقل مع بطله الى جزيرة القرصان ذات المناظر الجميلة فالى صالونات الارستقراطية الانجليزية فاسواق الرقيق فدور الحريم عنـــــد السلطان التركي فقصر الملكة يكاترينا الثانية الخ ... وهكذا تمكن الشاعر من رسم لوحـــة طريفة غنية بالالوان مليئة بالنقد الساخر لجميع المفاهيم البرجوازية حول الحرية والعدالـــة والمساواة ، لوحة تفضح التناقض الهائل بين هذه الشعارات المطروحة وبين تطبيقها الفعلي في سياسات جميع الحكومات الاوروبية .

ان تحلي دون جوان ببعض الحرية في تصرفاته الشخصية ليس الا سخرية من الأخلاق البرجوازية المزيفة ودفاعا عن شرعية العلاقات الطبيعية بين البشر . فدون جوان الذي هتك جميع اقنعة الأخلاق البرجوازية وخرق جميع قواعدها المزيفة يؤكد بسلوكه انه حامل الأخلاق الانسانية الحقيقية التي تتجلى في المواقف الحاسمة . انه الوحيد الذي يرفض المشاركة في الاقتيات بلحم رجل قتله رفاقه واكلوه عندما كاد الموت يهلكهم جميعا . وهو الوحيد الذي يخلص الفتاة التركية الصغيرة « ليلى » معرضا نفسه بذلك للموت في اتون المعركة المحتدمة .

ان دون جوان يرفض جميع علاقات المجتمع البرجوازي القائمة على الكذب والزيف الاجتماعي بما في ذلك مفهوم الزواج الذي وجده قائما على البيع والشراء ، ولذا فهو يرفض جميع انواع العقود الدنيوية ولا يعترف الا بعقد الطبيعة السامي :